وكان تأثير القرآن واضحا في اتخاذه مدار الدراسات البلاغية ، وكانت آياته البينات الشاهد البلاغي الرفيع . وكانت احدى آياته مدعاة إلى ان يؤلف أبو عبيدة «مجاز القرآن». يقول : «أرسل اليّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج اليه سنة ١٨٨هـ، فقدمت الى بغداد واستأذنت عليه فاذن لي ، فدخلت عليه وهو في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه ، وفي صدره فرش عالية لايُرتقى اليها إلا على كرسي وهو جالس عليها فسلمت عليه بالوزارة ، فردّ وضحك واستدعاني حتى جلست اليه على فرشه ، ثم سألني والطفني وباسطني وقال : أنشدني ، فأنشدته فطرب وضحك ، وزاد نشاطه . ثم دخل رجل في زي الكتّاب له هيئة فأجلسه الى جانبي وقال له : أتعرف هذا ؟ قال : لا ؛ قال : هذا أبو عبيدة علاّمة أهل البصرة ، أقدمناه لنستفيد من علمه ؛ فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا ، وقال لي : اني كنت اليك مشتاقاً ، وقد سألت عن مسألة : أتأذن لي أن أعرفك اياها ؟ فقلت : هات . قال :

قال الله —عزّ وجل— : «طَلْعُها كأنه رؤوسُ الشياطين» (١) ، وانما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف . فقلت : انما كلّم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفيُّ مُضاجعي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنياب أغوالِ

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم اوعدوا به : فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ، وعزمت من ذلك أن أضع كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج اليه من علمه . فلما رجعت الى البصرة عملت كتابي الذي سميته «المجاز» (٢).

وانتهى ابن خلدون إلى أن ثمرة علم البلاغة وإنما هي في فهم الاعجاز من القرآن، لأن اعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة ،

(١) سورة الصافات، الآية ٦٥.
(٢) معجم الادباء ج ٧ ص ١٦٦–١٦٧.

وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتظامها وجودة رصفها ، وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الافهام عن ادراكه» (١) :

وكانت لمسألة اعجاز القرآن أثر كبير في تطور البلاغة العربية، وكان المتكلمون أول من بحثوا في الاعجاز، واختلفت وجهات النظر في ذلك وتشعبت سبل القول، لأن الوصول إلى ذلك صعب، وتحديد البلاغة في كتاب الله أصعب: ولكنهم ـ مع ذلك ـ مضوا يتلمسون بلاغة القرآن ويبينون اعجازه، فكانت دراساتهم أحسن مصدر للبلاغة وأجل مورد لمن أراد أن يتذوق الكتاب العزيز ويفهم البيان :

ومن أشهر الذين عنوا بهذه المسألة أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ـ ٣٠٦هـ) الذي ألف كتاب «اعجاز القرآن في نظمه وتأليفه»، ولم يصل هذا الكتاب لنعرف الموضوعات التي عالجها وان كان يبدو من العنوان انه يتحدث عن اسلوب كتاب الله واعجازه في النظم والتأليف :

ومنهم أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ـ ٣٨٦هـ) صاحب رسالة «النكت في اعجاز القرآن» وقد ذهب إلى أن القرآن معجز ببلاغته، وهو أعلى طبقات الكلام :

وأبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي (ـ ٣٨٨هـ) مؤلف رسالة «بيان اعجاز القرآن»، وقد رأى أن البلاغة ترجع إلى جمال الفاظ القرآن وحسن نظمه وسمو معانيه وتأثيره في النفوس:

ومنهم أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ـ ٤٠٣هـ) الذي ألف كتاب «اعجاز القرآن» وهو من الكتب المهمة، وقد ذهب الباقلاني إلى أن كتاب الله معجز لأنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب .

والقاضي أبو الحسن عبد الجبار الاسد آبادي (ـ ٤١٥هـ) الذي كان الجزء السادس عشر من كتابه «المغني في أبواب التوحيد والعدل» خاصا باعجاز القرآن : وقد ذهب الى أن القرآن معجز بنظمه «وهي الفكرة التي بني عليها عبدالقاهر الجرجاني كتابه «دلائل الاعجاز» .

وهذه الكتب وغيرها تعد من أهم مصادر دراسة البلاغة، لأنها تعرضت لأسلوب القرآن الكريم وتكلمت على أساليب العرب في الكلام وقد كان أثرها عظيماً في تطور البلاغة واستقلالها عن الدراسات الأدبية والنقدية:

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢.